٣١

مسلمات خالدات

ضُباعة القُشيرية

محمد علي القطب

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

مسلمات خالدات

ضُباعَة القُشيريَّة

٣١

محمد علي قطب

المكتبة العصرية


بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لك صَدْرك ووضعنا عنْك وزْرَك الذي أنْقَضَ ظهْرَك وَرَفَعْنا لك ذكْركَ فإنّ مع العسرِ يُسراً إنّ مع العُسر يسراً فإذا فَرَغْتَ فانْصَبْ وإلى ربّكَ فارْغَبْ ﴾

صَدَق الله العظيم

ـ وسُئِلَ رسُولُ الله ﷺ عن المرأةِ الصالحَةِ فقال:

ـ هي التي إنْ نَظَرَ إليها سَرَّتْهُ ، وإنْ غاب عنْها حفظتْهُ في مالِهِ وعِرْضِها.

وصَدَق رسُولُهُ الكريم

نَسَبُهَا ونشأتها

هي : ضُباعةُ بنت عامر بن قرْط بن سلمة بن قُشَيرْ بن كعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

والنسب الذي ينتهي إلى « عامر بن صعصعة » عند العرب ، ينتهي إلى أرومةِ المجد ، ودوْحة الشرف والسُّؤْدَد ، والمكانة العالية .

في هذا البيت الكريم وُلِدَت « ضُباعةُ » ، وفي أفيائه وظلالِهِ رتعت ، وتَحْت سقفِهِ تلقَّتْ مباديء المعرفة ، بلاغةً وفصاحةً وبياناً .

وكانَتْ إلى جانب هذا جميلةً بارعة الجمال ،

ذات قامة ممشوقة ، وهامة عالية ، ووجْهٍ يقـارع البـدْر جمـالاً ووضـاءةً ، وبَشرةٍ بيضـاء ناصعـة ، وشَعَرْ فاحمٍ يحاكي اللّيلَ سواداً ، غزيراً طويلاً .

ما سَمِع بها أَحَدٌ من شبّانِ العَرَبِ وفتيانهم إلا وتمنّى أن تكون له زَوْجَةً وأَليفةً .

خطبتها

وجاءَ إلى أبيها « عامر بن قرطٍ » ، - « هوْذةُ بن عليٍ الجعفي » خاطباً ، فقبِلَ به وزوّجها مِنْهُ . . .

ولكن حياتهما الزوجيّة لم تَدُمْ طويلاً ، فقد توفّي عنها « هَوَذَةُ » وهي لا تزال في ميْعة الصّبا ؛ وكان غنيّاً واسع الثروة ، كثير المال ، فورثَتْ عَنْهُ « ضُباعةُ » مالاً وافراً ، وعقاراً . . .

وعادت إلى بَيْتِ أَبيها وفي حلقها غُصّة ، وفي قلبها حَسْرَة ، وفي عينها عبْرة ، حَيْثُ صُدِمَتْ في زواجها الأوّل ولم تكُنْ قد استمتعت طويلاً ؛ وتأيمّتْ شابّةً فتيّةً لم تتعدَّ العقد الثاني من عُمْرها .

أقامت في بَيْتِ أَبيها وهي تعاني من أَلَم المصاب والصّدْمةِ المبكّرة ، وكان لها ابن عَمٍّ يحبّها ويرغَبُ في الزواج منهَا ويألف عشرتها ، ولكنه كان رقيق الحال قليل المال ، وكانت هي من ناحيتها ترغَبُ في ابن العمّ هذا وتحبُّهُ وتتمنّاه ، لكنها كانت خاضِعةً لرأي أبيها « عامر بن قرط » لا تُبْرِمُ أمْراً دونَهُ ، ولا تقطع برأيٍ دون مشورتِه ، حتى ولو كان الشأن يتعلّق بصميم حياتها ، وخصوصيّاتها.

أضف إلى ابن عمّها هذا ، الذي لم يذكر لنا التاريخ إسمَهُ بل اكتفى بايراد صفته ورغبته وحُبّه ، أضف إليه « هشام بن المغيرة » السيّد القرشّي والرجُل البارز في عشيرته ، فقد كان هُوَ الآخر مُغْرماً بـ « ضُبَاعة » مفتوناً بِسِحْر جمالها ، وحُلْوِ منطقها ، وعذْب حديثها ، وفتنة بهائها.

لكن أباها « عامر بن قُرْط » أعْرَض عن هذين وزوّجها الزواج الثاني من رجُلٍ لا يقلّ شهرةً ولا مالاً ولا مكانةً عن « هشام » ، هذا الرجُل هُوَ « عبد الله بن جُدْعان » . . .

والذي جعل والدها يقبله ويرحّب به ويُسْرِع في تزويجها منه ، كثرة مال « عبد الله » ، وغناهُ العريض ، الذي طَبّقَتْ شهرته الآفاق. وعظيم شهرته التي كانت لا تخفى على أَحَدٍ من أهل الحضر والمدر.

« عبد الله بن جُدْعان » . . . كان على مستوى الرؤساء والزعماء من الْعَرَب قاطبة ، ليس في قبيلتِهِ وَحْدها ، بل في كُلّ البطون والعشائر.

وعندما جُهزَت « ضُبَاعَةُ » إلى « عبد الله » زوجها لجديد ، وحمِلَتْ إليْه لحق بها ابن عمّها المفتون بها ، المتولّه بحبّها ، حتى حاذى هوْدجها

فأحسَّتْ به ، وكانَتْ تحبّه كما ذكرنا ، فقال لها :

- يا « ضُباعة » . . . الرّجالُ البُخْر أَحبّ إليْك (كنايةً عن عبد الله بن جُدْعان) أم الرجال الذين يطعنون السّور (كنايةً عن نفسه)

فقالت :

- بل الرجالُ الذين يطعنون السُّور.

قالت ذلك لتعبّر لَهُ عن حُبّها إيّاه ، ووفائها لَهُ ، لكنها غَير قادِرة على التصدي لإرادة أبيها ومخالفة رغبته ؛ فهي تخضع كلّيةً لرغبة الوالد ، ولا تدري سبيلاً الى الفكاك من أَسرِ التسلّط عليها. ثُمّ استمرّتْ في طريقها إلى زوجها الجديد « عبد الله بن جُدْعان » ، وعاد ابن عمّها يطوي قلبه على حُبّه ، خالي الوفاض ، لم يفُزْ بطائل.

طلــب الطــلاق

ومات والدها « عامر بن قرط » . . .

فأتاهـا في غفلـةٍ من زوجهــا « عبــد الله بن جدعان » ـ « هشام بن المغيرة » الـذي كان يحبّهـا حتــى العبــادة ، وكان من رجــال قريش المعـدودين ، ومـن رؤوس الأسياد والأشراف في قريْش ، فهمَسَ لهـا في أذنيهـا ، وأيقـظ ما كان غافلاً من حُبّهما وقال :

ـ أرضيت (يا ضُباعة) لجمالك وهيئتك بهذا الشيْخ اللئيم (أي عبد الله بن جدعان) ، سليه الطلاق حتى أتزوّجَك .

وكان والد « ضباعة » في ذلك الحين قد تُوُفي ، فأصبحت في وضْعٍ يمكنها من التحرُّك بإرادةٍ مطلقة ، ودون ضَغْطٍ.

وفي ذات يَوْمٍ قالت لزوجها « عبد الله بن جُدعان » :

ـ أريدُك أن تطلقني يا « عبد الله » فقد كرِهْتُ العيْش معك.

شروط زواجها

ولم يفاجأ « ابن جدْعان » بالطلب ، فقد كان عارفاً ومُدْركاً لماضيها ، وإحساسها بالكراهية له ؛ فقال لها :

ـ قد بلغني أن « هشام بن المغيرة » قد رغب فيك ، ولَسْتُ مطلّقاً لك ، حتى تحلفي لي أنّكِ إن تزوّجْتِ (من هشام) ، أن تنحري مائة ناقةٍ سُودَ الحدْق ، بين « إساف » و« نائلة »[1] ، وأن تغزلي خيطاً يُمَدّ بين أَخْشَبَيْ[2] مكة ، وأن تطوفي بالبيْت عُريانة . . .

(١) إساف ونافلة : صنمان كانا مقدّسين عند العرب .
(٢) الأخشبان : جبلان من جبال مكة .

كانت شروط « ابن جدعـان » قاسية صَعْبـة ، وكأنهّـا نَوْعٌ من التعجيز ، حتـى لا تتمـكن « ضباعة » من التنفيذ ، وتبقى في مِلْكِهِ وبيْتِهِ وبَينَ يَدَيْه ؛

إلا أن رغبتها في الخلاص من « ابن جدعان » كانَتْ أَشَـدّ وأقـوى وأعظـم من شروطـه ، ولـو سخَّرت كُلّ إرادتها وعَزْمها في سبيل ذلك، فقالت « ضباعة » بعد صَمْتٍ قليل ، وصَبْر غير طويل :

ـ دعْني أنظُرْ في أمري.

فتركها « ابن جُدْعان » فَتْرةً للتفكير والرّدِ على شروطه.

وأرْسَلَتْ « ضُباعة » إلى « هشـام بن المغـيرة » تخبرُهُ بشروط « عبـد الله بن جدْعـان » زوجهـا ، فجاءَ إليها على عَجَلٍ وقال :

ـ أما نَحْرُ مائةِ ناقةٍ فهُوَ أَهْـونُ عَليّ من ناقـة أنحرهـا عنــك . (وكان كما علمــت غنيّاً ثريّاً سيّداً) .

وأضاف« هشام » :

ـ وأما الْغَزْلُ فأنا آمر نساءَ بني المغيرة (قومه) يَغْزِلْنَ لك ، وأما طوافك بالبيْتِ عُريانـة ، فأنـا أسألُ لكِ قريْشاً أن يُخْلو لك البيْت ساعةً ، فسليه الطلاق .

التحدي

وأُحِبُّ قَبْل أن أسترسل في الحديث عن « ضُباعة » وأمورها وشؤونها وتفاصيل حياتها ، أحبُّ أن أتحدَّث عن الطواف بالبيت في الجاهلية ، قبل بعثة سيدنا « محمد » ﷺ ، وقَبْل الإسلام ؛ فنقول :

لقد كان الطواف بالبيْت وتعظيمه من رواسب دينِ ابراهيم « عليه السلام » عند العرب ، ولكن مع كثير من الانحراف والابتعادِ عن حقيقة مِلّة « ابراهيم » والحنيفية السَمْحاء.

إذ كان طوافهم يُصَاحبُهُ التّصْفيرُ والتصفيق ،

وذلك كما عبّر عنه القرآن الكريم (مكاءً وتصْدية) ، أما الإحرام فقد أضحى عِنْدَهم تعريةً كاملة للجسد،

كُلّ ذلك جَعَلَ موضوع الحجّ يأخُذُ صِفَة السّخْرية والهزء واللَّعب ، والنزول الى الدَّرْك الأسْفل من الحيوانية والبهيميّة والحُمْق .

ولهذا طلب « ابن جدعانٍ » من « ضباعة » أن تطوف بالبيْتِ عُريانة ، كنوعٍ من التحدّي.

وقبلَتْ « ضُباعةُ » التحدّي بتشجيع من « هشام بن المغيرة » ، وسألت « ابن جُدْعان » الطلاق للمرّة الثانية ، معلنة قبولها بشرُوطِهِ ، فطلقها ، وربط التّنْفيذ بالإبرام ، كما حَلَفَتْ له أنها ستقوم بالوفاء بالوعد والعَهْد.

الطواف

ووفى لها « هشام » بما وَعَدَ من نحرِ النّياق ، وغَزْل الخيْط الطويل ، أما الطواف بالبيْت فيُحكى عنه ما يلي :

روى « ابن عباس » ـ رضي الله عنه ـ عن « المطلب بن أبي وداعة السهْمي » الذي كان لِدةً لرسولِ الله ﷺ ، في مِثْلِ سِنّه وعُمْرِه قال :

ـ لمّا أَخْلَتْ قريْش لـ« ضُباعة » البيْت خرجتُ أنا ومحمد ، ونحن غلامانِ فاستصغرونا ، فلم نُمْنَع ، فنظرنا إليها لما جاءَت (أي ضُباعة) ، فجعلَتْ تخْلَعُ ثوْباً ثوْباً وهي تقول :

اليومَ يبــدو بعضــه أو كُلّه
فما بدا مِنْــهُ فلا أُحِلُّهْ

(تعني جسدها) .

حتى نَزَعَتْ ثيابها ، ثُمّ نَشَرَتْ شَعْرها ، فغطى بطنهــا وظهرهــا ، حتــى صار في خُلْخالهِــا ، فما استبانَ من جسدها شيء ، وأقْبَلَتْ تطـوفُ وهــي تقولُ هذا الشّعْر.

اسلامها

كُلُّ تِلْكَ الأحْداث والوقائع في حياةِ « ضباعة » إنما كانَتْ قَبْل إسلامها واتّباعها رسول الله ﷺ ، ودخولها في الدين الجديد .

ولم تَمْضِ أَعْوَام حتى مات زوجها « هشام بن المغيرة » وكانت قد أنجبَتْ مِنْه ولَدها « سَلَمَة » .

ثُمّ بُعِثَ رسول الله ﷺ بالإسلام ، يستنقذ به أُمّة العَرَب من وهْدَةِ الشرْكِ والوثنية والفجور ، ويرتفع بهم ، وبالإنسانية ، إلى قمّة التوحيد والفضائل .

ولقد رأت « ضباعةُ » في الدين الجديد ما يريحُ

النّفْس والقلْب والعقْل ، وينْزع بالفرْدِ إلى العلاء ، وينَزّه المجتمع عن كُلّ رذِيلة ، وكانَتْ ـ رضي الله عنها ـ ميّالة بحُكْم نضوجها واستواء تفكيرها إلى الخير والحق ، فآمَنَتْ برسُول الله ﷺ ، واتّبَعَتْ سبيله .

اسْلَمَتْ « بايَعَتْ » ولم تَخْشَ أحداً من الناس ، لا من قومها وعشيرتها ، ولا من سادة قريشٍ ومستبدّيها.

ونَذَرَتْ نفسها جنديَّةً تدافع عن الدين الجديد ، وتدعو إليْه ، وتجاهد فيه ، غايتها رضى الله ورسوله.

ويحكى في هذا الصّدَد فيُقَال:

روى « عبد الرحمن العامري » عن أشياخٍ من قومِهِ قالوا:

أتانا رسول الله ﷺ ونَحْنُ بـ « عكاظ »[1] ، فدعانا إلى نُصرتِهِ ومَنَعَتِهِ ، فأجْبنَاه.

ثم جاء رَجُل يُدْعى « بَجْر بن فراس القشيري » ، فَغَمَزَ شاكِلَة ناقة رسول الله ﷺ ، فقمصَتْ به فألْقَتْهُ ؛ وعندنا يومئذٍ « ضُباعة بنت عامرٍ بن قرط » ، وكانت من النسوة اللاتي أسْلَمْنَ مع رسول الله ﷺ بمكّة.

فأسرَعَتْ « ضباعةُ » إلى فَرْزَة بني عمها (أي مكان إقامتهم ومضاربهم) فقالت (مناديةً) :

ـ يا آل عامر ، ولا عامر لي ، أيُصْنَع هذا برسول الله ﷺ بَيْنَ أظْهُرِكُم ، ولا يمنعه أحَدٌ مِنكُم؟

(ويبدو أن نداء « ضباعة » ـ رضي الله عنها ـ

---

(١) سوق كان يقام في الجاهلية يجتمع فيه الناس للشعر والتجارة وغيرهما .

هذا ، قد أَثَر في القوْم واستثار حماسَهُم) .

فقام ثلاثَةٌ من بني عَمّها الى « بَجْرة » ، فأَخَذَ كُلّ رجُلٍ مِنْهُـم رجُلاً ، فَجَلَـدَ به الأرض ، ثُمّ جَلَسَ على صَدْره ، ثُمّ علا وَجْهَهُ لطْماً .

ورأى ذلك رسول الله ﷺ فقال داعياً :

ـ اللهُمّ بارِكْ على هؤلاء .

ولقد نال الثلاثة ـ كما تقـول الـرواية ، ودون ذكر أسمائهم ـ بركة المصطفى ﷺ ، إذ أسلموا جميعاً وماتوا شهداء .

وتحمَّلَتْ « ضُباعـة » ـ رضي الله عنهـا ـ قسْـوة الحياةِ بـ «مكَّة» طوال إقامةِ المسلمين فيها ، مُنْصرِفَةً إلى تربية ولدهـا « سلمـة » وتلقينـه مبـادىء الإســلام ، وتنشئتـه النشـأة الصالحـة في ظل الإيمان ، وتعرضت ـ رضي الله عنها ـ لضغوط أهل

زوجها وأهْلِها ولكنها صَمَدَتْ واحْتَمَتْ بدينها ، واعتصمت بإيمانها ، فكان لها ربهُّا خير حافظ وهو أرحم الراحمين .

لـم تَبْـرَح « مـكّة » مهاجـرة إلى أي مكان ، وظلّت مقيمةً فيها حتى كانت الهجرة إلى يَثْرِب ، عندئـذٍ شَدّتِ الرّحـال وانطلقـت مع ولدهـا « سلمة » في . . . سبيل الله .

أخلاقها

ولا يظنَّنَّ إنسانٌ أبداً أن « ضباعة » ـ رضي الله عنها ـ كانَتْ في جاهليّتها ، وقبل الإسلام ، فتاةً مستهترةً ، لا تقيم للخُلُقِ أو الشرف وَزْناً ، وأنها تجرّدَتْ من ثيابها إرضاءً لرَغبةِ عاطفتها وتعلّقها بـ « هشام بن المغيرة » . . . أَبَداً . . . أبداً . . .

ذلك أن زواجها من « ابن جُدْعانٍ » لم يكُن باختيارها ، أو بمحضِ إرادتها ، ولَقَدْ كانَتْ مكرهةً على ذلك ، ثُمّ إنها ذاقَتْ في حياتها مَعَهُ الأمرَّيْن ، وحين طلبَ إليها تلك المطالب المعجزة ، حوّلتها إلى « هشام » الذي كان حبُّه لها

يتجاوز كُلّ الصعاب ، ولو قُدّر له أن يفعل المستحيل لما قَصّر ، وسرعان ما استجاب لها.

وضمن أهَمّ مَطْلَبٍ ، وهو خُلُوّ البيْتِ من الناس (أي الكعبة) حتى تطوف به عُريانة ، ولقد كان من رحمة الله بها أن كساها شعراً غزيراً في رأسها ، غطى كُلّ أنحاء جَسَدها ، فَلَمْ يَبْدُ مِنْهُ شيء

ولهذا ردّدت :

اليوم يَبْدو بعْضُهُ أوْ كُلّه

فما بدا مِنْهُ فلا أُحِلّه

أي إن بدا من جسمي بعضه أوْ كُلّه ، فهو حرامٌ عليّ وعلى الناسِ جميعاً ؛ وعلى الأخص ، مَنْ يرغبون بي زَوْجَةً .

توبتها

ولئن كانَتْ - رضي الله عنها - في جاهليتها تعتز، قليلا أو كثيراً، بجمالها، فإنها في إسلامها قد تبدّلَتْ لديها القيم والموازين وأضحى الدين والخُلُق والايمان، مقومات شخصيتها، وموازين الناس والأفراد عِنْدها، وهي المعايير التي ترفع الناس أو تخفضهم في نظرها.

ومصْداق ذلك.

أن رسول الله ﷺ قد رَغِبَ في الزواج منها، بعد الهجرة، فخطبها إلى ابنها « سلمة »،

فقال :

ـ يا رسول الله ما عَنْكَ مَدفع ، أفأستأمِرُها؟

قال (عليه الصلاة والسلام) :

ـ نعم .

فأتاها، فقالت « ضباعة » المسلمة المؤمنة القانتة :

ـ إنا لِلّه (وإنا إليه راجعون) أفي رسول الله تستأمِرُني؟ (عجباً) (بل) أنا أسعى لأن أُحْشَرَ في أزواجه ﷺ إرْجع إليْه فقُلْ له نعم قبل أن يبدو له (أي قَبْل أن يُغَيِّرَ رأْيه) .

فرجع « سلمة » فقال ما أوصتْهُ أُمّه ، فسكت النبيّ ﷺ ولم يقُلْ شيئاً.

وكان قد قيل له بعد أن ولّى «سلمة » :

إن « ضُباعة » ليْسَتْ كما عَهِدْتَ ، فقد كثرت غضون وَجْهها، وسقطت أسنانُها من فمها.

لقد كانت « ضباعة » - رضي الله عنها - على قاب قوسين أو أدْنى أن تكون من أُمّهاتِ المؤمنين، ولكن لله في تدبيرِهِ شؤون وحكم.

رضي الله عنها، وغفر لها، ورفع منزلتها ومقامها، وحَشَرَها في جناتِ النعيم مع الصديقين، وألحقنا بها في الصالحين من عباده.





الثمن : ٦٠ ق. ل. أو ما يعادلها